محور
دراسات قرآنية

تطبيقات الحجاج في الميزان في تفسير القرآن وفق نظريتي تولمن وديكرو

م.م. حيدر لطيف حسين أ.د. أحمد رسن صحن
كلية الآداب جامعة البصرة

الملخص : تطبيقات الحجاج في الميزان في تفسير القرآن وفق نظريتي تولمن وديكرو: يحدد البحث الاليات الحجاجية التي تواجدت في الميزان في تفسير القرآن وفق نظرية تولمن التي اعتمدت على المنطق واللغة ونظرية ديكرو التي اعتمدت على العوامل والروابط الحجاجية اضافة الى السلم الحجاجي.

توطئة:

أولا:الحِجاج في اللغة: ذكر الخليل أن((الحُجّة وجه الظفر عند الخصومة، والفعل حاججته فحججته واحتججت عليه بكذا))( )، ويرى ابن فارس ت (٣٩٥هـ) أن مادة (حجج) لها أربعة أصول، الأصل الاول هو القصد والحُجّة ترجع الى القصد ((لأنها تقصد، او بها يقصد الحق))( ) ونقل أبو هلال العسكري ت (٣٩٥هـ) أن الحجة تمثل العملية الاستدلالية للذهن، وأن إطلاق لفظ الحجة على الدلالة لايكون إلا بعد التمعن والنظر( ).

وقد فرق العسكري بين مصطلحات الدلالة والحجة والاحتجاج والاستدلال ودلالة الكلام ودلالة البرهان والفرق بين الاستدلال والدلالة( ). هذه المصطلحات قريبة جداً من الدرس اللساني الحديث. تدور معاني الحجاج في لسان العرب حول مفاهيم البرهان والدليل والتخاصم. إذ الحجة البرهان، وقيل الحجة ما وقع به

الخصم، والحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وجمع الحجة: الحجج وحجاج، والحجة: الدليل والبرهان، والتحاج: التخاصم، وحجة محاججة وحجاج، نازله الحجة، والرجل المحاجج هو الرجل الجدل، والاحتجاج: احتج بالشيء: اتخذه حجة( ). وفي هذا التعدد لمعاني الحجة والحجاج وتصريفاتها إشارة إلى معرفة ودراية لهذا المفهوم في ذلك العصر؛ فهناك حجة ومحاججة وجدل واحتجاج، وهذه التصريفات كاشفة عن تداول واستعمال هذا المصطلح الذي ذكر لمعنى (الحجج).

ثانيا:الحجاج في إصطلاح القدماء :

لاينفك المعنى الاصطلاحي القديم عن معنى البرهان والاستدلال اللغوي، فقد ذكر ابو الحسين اسحاق بن وهب (ت ٣٣٧هـ) الجدل((واما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به اقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقيقة والخصومات، والتنصل في الاعتذارات))( ).

فمعنى الجدل الاصطلاحي هو ذاته الحجاج اللغوي حسب ابن منظور الذي أورد أن الرجل المحاجج الرجل الجدل، وفي كلام ابن وهب إشارة مهمة لميدان الحجاج عنده فقد وسّع أفق الحجاج ليشمل العقائد والحقيقة والمغالطات والتنصل في الاعتذارات وكأنه قد حدد ميدان الحجاج كباحث محدث وخصوصاً ذكره لميدان التنصل في الاعتذرات فهذا جانب لايتناوله المنطق الارسطي غالباً مايترك للحجاج الاجتماعي واللغوي.

وقد عرّفه حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) بقوله ((لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الاخبار والاقتصاص، وأما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال))( )، يخصص حديثه عن الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب وهو الاخبار، ثم يفصل في انواع الاخبار، اذ يرى أنها إما أن تكون على نحو الاخبار،

والاقتصاص، أو تكون هذه الاخبار على نحو الاحتجاج والاستدلال. وهنا تصنيف للخبر يربطه حازم القرطاجني بغايات ومقاصد الكلام وهي غايات اخبارية لاحجة أو استدلال فيها، وغايات حجاجية استدلالية.

ثالثا الحجاج عند تولمن وديكرو:

١.الحجاج عند تولمن:

لم يكن الحجاج والمنطق متقابلين، أو متصادمين عند تولمان إنما يعتمد الحجاج على المنطق الصوري، ويرى أن الإشكالية التي توخذ على المنطق اعتماده على الرمز الرياضي او المنطق الرياضي، ويحاول تولمان عتق المنطق من التشكل الرياضي ودفعه باتجاه الحجاج، و يأسف لتطور المنطق في هذا التشكيل الرياضي( ). فمفهوم الحجاج عنده يقوم على صناعة البرهان في المنطق ويستند على نظرية القانون، بعد أن كان مفهومه عند بيرلمان ونيتيكا قائماً على صناعة الجدل من ناحية وصناعة الخطابة من ناحية أخرى، إذ أصبح الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا لا جدل ولا خطابة، وإنما شيء جديد قائم بذاته يسمى الخطابة الجديدة( ).

وقد التقى ميشال آدم بالبنية القاعدية (الاستدلال – التقييد) الأقل تعقيداً والتي اقترحها تولمن وطورها من جاء بعده( ). وعناصر الحجة هي الادعاء والدعم والاستنتاج( ). و ((الحجة عند تولمان شيئ ديناميكي نشط: وهذا يتعلق بعملية تتبع طريقة عمل وانتشار و آليه ترتيب خاصة يمكن تمثيلها بنموذج تحليل))( ). ويرى الدكتور عبد الله صولة أن البنية التداولية للحجاج عند تولمن تتكون من ثلاثة عناصر هي (م/ المعطى)، و (ض/ الضمان)، و (ن/ النتيجة)( ).

٢.الحجاج عند ديكرو :

تقع دراسة الحجاج لديكرو وانسكومبير في التداولية المدمجة التي تتبنى اندماج الوقائع التداولية في سيرورة الوصف الدلالي، وهي

تعتمد على المعطيات التي لها ارتباط بالمجال اللساني البحت( ).

ويمكن تقسيم رؤية الباحثين على مراحل ثلاث: –

•المرحلة الأولى كانت مرحلة ما قبل كتاب الحجاج داخل اللغة اذ كانت الرؤية الصورية سائدة، وكان الحجاج خارج اللغة، ويلقي بحاكميته وسلطته على اللغة( ).

• المرحلة الثانية مرحلة انتقال الحجاج داخل اللغة بعد صدور كتاب الحجاج داخل اللغة، وهنا عرف الحجاج بأنه ((حين نصف خطاب ما بأنه خطاب حجاجي، فذلك معناه أن هذا الخطاب يحتوي ملفوظين اثنين على الاقل: م١ م٢، حيث يقوم أحدهما بتعزيز واسناد الآخر، فيسمى حجة والثاني نتيجة))( ). وهذا التعريف يعتمد ويركز على الحجة والنتيجة التي يرمز لها بالرمز (ن).

• المرحلة الثالثة هي مرحلة فعل الكلام الحجاجي عدّل فيها الباحثان تعريفهما الخطاب الحجاجي بعد وجود اعتراضات على نظريتهما من الباحث الفرنسي (دانيال لاكومب) مما اضطر الباحثان إلى تبديل التعريف والتركيز على الفعل الحجاجي لكل خطاب حجاجي لإعطاء ميزة لكل مساحة لغوية دون التسبب بالانقطاع بين الحجج المساقة واعتماد مبدأ القصدية الحجاجي المساق فقط. فيكون التعريف النهائي للخطابات الحجاجية هو التعريف السابق ذاته مع مراعاة اعتبار الملفظ م١ أقوى من م٢ واذا كان م١ و م٢ يشيران إلى اتصاف موضوعيهما بالخاصة ((نا)) عينها (الفعل الحجاجي الخاص) حيث تشير م١ الى درجة أعلى من تلك التي تشير اليها م٢ ضمن هذه الخاصية (خاصية الفعل الحجاجي) وهذا الفرق بالتعريف على حساب التعريف السابق الذي كان يؤكد قوة الحجة تكون بمقدار إسنادها الى النتيجة (ن)( ).

فالحجاج عند ديكرو يعد تمظهراً مقابلاً للتمظهر الكلاسيكي للحجاج، والخطابة، فبيرلمان اعتمد البلاغة،

والخطابة، والعقل، والحوار العقلي في حجاجه إلا أن ديكرو يرى أن الحجاج يكمن داخل اللغة وله علاقة ببنية اللغة.

فالتوجه اللساني في الدرس الحجاجي لديكرو يرى أن التسلسلات الحجاجية المركزة في خطاب ما ترتبط بالبنية اللغوية للأقوال، وليس بالاخبار التي تشتمل عليها فقط وهو بذلك قد عارض نظرية الخطابة الجديدة التي جاء بها بيرلمان وتيتكا، فالحجاج ((محصور في نطاق دراسة اللغة لا في البحث عما هو واقع خارجها))( ).

ويختلف ديكرو عن بيرلمان في مواضع كثيرة( )، فديكرو بخلاف بيرلمان يرى أن كل قول هو عبارة عن حجاج والوظيفة الوحيدة للغة هي الوظيفة الحجاجية ولا توجد للغة وظيفة ابلاغية( ).

ويمكن تعريف الحجاج بما يلي:

كل قول أو فعل غايته (إقناع المتلقي واستمالته أو حمله) على القبول بفكرة ما، أو اثبات، أونقض دعوة ما، و حمل المتلقي على سلوك ما، سواء كانت آلياته لغوية لسانية أو بلاغية أو كانت آلياته خارج اللغة: نفسية، أو اجتماعية، أو فلسفية، أو تاريخية، أو علمية.

بهذا الحد يمكن جعل مساحة النص الحجاجي واسعة جدا.

بعد هذا التقديم نتجه لمدونة الميزان لأجل اجراء التطبيقات وفق نظريتي تولمن وديكرو:

أولاً: البنيات التداولية للحجاج وفق أنموذج تولمن الحجاجي وتطبيقاتها في الميزان في تفسير القرآن:

- القياس الأرسطي مما اعتمده تولمن في تكوين الحجة فقد وازن تولمن بين قواعد الاستدلال في الخطاب وبين المنطق عند أرسطو، فالقياس الحجاجي عند أرسطو يتكون من:
- مقدمة كبرى.
- مقدمة صغرى.
- نتيجة.

غيّر تولمن أسماء مكونات القياس الحجاجي الأرسطي، إذ سمى

(المقدمة الكبرى) قانون العبور؛ لأنها تسمح لنا بالانتقال من الحجة إلى النتيجة، وأضاف عناصر أخرى ثانوية مثل السند (Suppor) التي تزيد في قوة النتيجة، أو تنقص منها( ) وللحجة عناصر تعد من مكونات الحجة وهي تسمى عند تولمن بأنموذج الحجة، أو الهيكل الحجاجي وعناصر الحجة (الادعاء، و الدعم، و الاستنتاج)، والخطاطة التالية تمثل أنموذج تولمان:

م ن

الربط بين المعطاة والنتيجة يمكن ان يكون ظاهراً أو ضمنياً بواسطة سند ضامن (garant)، أو سند (Support) وفي غالب الأحيان تكون المعطاة (المعطى) ظاهرة، والسند مضمرا، في حين تتأرجح العناصر الاخرى بين الظهور والاضمار()

وفي قوله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة:١٨٣-١٨٥].

في هذه الآيات الثلاث يعمد العلامة الطباطبائي لاعتماد ادعاءات مدعومة ومتعددة وهي:

١- الادعاء الاول / أن سياق الآيات يدل على أنها نازلة معاً يدعم هذا الادعاء بـ:

أ- ((ايماماً معدودات)) ظرف متعلق بقولهِ ((الصيام)) في الآية الأولى.

ب- (شهر رمضان) إما خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع إلى

قولهِ أياماً ويكون التقدير (هو شهر رمضان)، أو مبتدأ لخبر محذوف والتقدير شهر رمضان هو الذي كُتب عليكم صيامه أو هو بدل من الصيام في قولهِ تعالى " كتب عليكم الصيام " في الآية الاولى.

ج- الاستنتاج / إن هذه الآيات الثلاث كلام واحد مسوق لغرض واحد وهو بيان فرض صوم شهر رمضان.

٢- الادعاء الثاني/ إن الآيتين جيء بها كمقدمة وتوطئة وتمهيد للآية الثالثة ودعم هذا الادعاء بـ:

أ- السياق اللغوي:

إذ يرى العلامة الطباطبائي أن هناك حاجة لهذا التقديم، فالخبر أو الحكم ثقيل شاق بطبعه على المخاطب وهو حكم الصوم( )

القرآن كتاب هداية وتشريع يؤسس حجة على الواقع النفسي والاجتماعي يريد من المخاطب التزام حكم الصوم، فهنا يحتاج هذا الحكم الثقيل إلى مقدمة وتمهيد له.

ب- نوع الجمل الواردة في الآيتين المقدمة يصفها بأنها جمل لا تخلو واحدة منها عن هداية ذهن المخاطب إلى تشريع الصوم بإرفاق وملائمة، إذ يذكر ما يرتفع معه الاستحياش والاضطراب، ويحصل به تطبيب النفس، وتنكسر به سورة الحجاج والاستكبار.

ج- اعتماد التخفيف والتسهيل في الحكم، وهو وجود الفدية لمن كان مسافراً أو مريضاً وسقوطهُ عمن لا يطيقونه.

د- ما في الحكم من خير عاجل وآجل.

٣- الادعاء الثالث/ يعمد العلامة الطباطبائي الى نقض ادعاءات من قال من المفسرين بكون الآية " و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين " إنها تفيد الرخصة ثم نسخت، أو إنه تم نسخ حكم غير العاجزين مثل الشيخ والهرم والحامل والمرضع فبقي على حاله.

الدعم:

أ- القسم الذي افتتح به كلامه إذ قال: ((ولعمري إنه ليس إلا لعباً بالقرآن وجعلاً لآياته عضين)) ( ).

ب- قراءة السياق قراءة تُظهر تفككه وعدم قدرته على أداء المعاني المطلوبة إذ يظهر من خلالها التعارض والتناقض ( )

وفق هذه المعطيات سيكون:

المعطى / كل ادعاء مدعوم بحجة.

الضامن / تناسق آيات القرآن وتناسق ترتيبه.

النتيجة / إن هذه الآيات نزلت معاً وتشكل كتلة واحدة لغاية واحدة وهي فرض الصوم.

ويمكن القول ان في كل الادعاءات يوجد معطى وضامن ثانوي يصل في نهاية الامر لدعم النتيجة الكبرى.

فمثلاً في الادعاء الثاني سيكون:

المعطى / سياق الآيات يدل على ان شطراً من الكلام مقدمة وتمهيد لشطر اخر جيء بها لتسكين النفوس؛ لأجل تسهيل فرض الصوم.

الضامن / كون القرآن دين الفطرة يبتغي هداية الناس ودعمهم في إنجاز الفرائض والتكاليف (ضامن)، وهناك ضامن آخر ذكره القرآن كون الصوم، قد فرض على الامم السابقة ايضاً.

النتيجة / إن الآيتين تقدم وتمهد للآية الثالثة.

في قوله تعالى: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [البقرة:٢١٠] .

تطرق لقضايا عقائدية يمكن ترتيبها وفق ما يأتي :

الادعاء الأول / الله تبارك وتعالى لا يوصف بصنعة الأجسام، ولا ينعت بنعوت الممكنات مما يقضي بالحدوث، ويلازم الفقر والحاجة والنقص.

الدعم /

أ- الآيات القرآنية التي تنزه الله تبارك وتعالى عن الجسمية كقوله تعالى:

{ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }[الشورى:١١]، وقوله تعالى: { هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [يونس:٦٨].

ب- إن في القرآن آيات متشابهات، وأُخر محكمات فكل آية متشابهة يرجع بها إلى الآية المحكمة.

وسيكون الاستدلال وفق نظرية تولمن:

المعطى / إن الله تعالى منزه عن الجسمية وهو الغني.

الضامن / الدليل العقلي الذي يثبت ان الجسمية فقر واحتياج وعجز.

النتيجة / لابد من حمل الآية، أو الآيات على المجاز بتقدير الأمر، وسيكون التقدير هو (يأتي امر الله).

هذا الادعاء بعد أن انتهى منه العلامة الطباطبائي يرفضه، ويقول: إن جمهور المفسرين يذهبون لهذا، ويرى أنَّ هذا مما يقتضيه البحث الساذج.

يقدم العلامة حجة جديدة وفق الادعاء الثاني الذي يريد اثباته.

الادعاء الثاني / أنّ الادعاء الأول يقتضية البحث البسيط.

الداعم /

أ. التدبر وإثبات أن الله تبارك وتعالى : { هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [يونس:٦٨]، وقوله تعالى: { الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠]، تفيد هذه الآيات ان الله تبارك وتعالى واجد لما يعطيه من الخلقة وشؤونها واطوارها، وهذا الذي يعطي، ويهب ليس بالضرورة أن يناسب إعطاؤه أذهاننا وأفكارنا التي قد اعتادت النظرة المادية، فالمجيء عندنا مادي واليد مادية.

ب. الإشكال هو في وصف الله تبارك وتعالى بالماديات؛ لأنها تعني الافتقار، والجسمية، والنقص، فلو

استطعنا معالجة هذا الإشكال، فلا ضير من وصفه تبارك وتعالى وصفاً حقيقياً، فسلب المِلاك المادي، ووضع مِلاك يتناسب مع الله تبارك وتعالى، ويليق بكبريائه لا إشكال فيه.

الاستنتاج /أن وصف الله تبارك وتعالى بهذه الاوصاف سيكون وصفاً حقيقياً بمعنى يناسب ذاته وكبريائه وعظمته، فسيكون: –

المعطى / رفض الادعاء الاول واثبات الادعاء الثاني.

الضامن / الرؤية العميقة والسير العرفاني( ) الذي حوله من رؤية عرفانيه إلى دليل عقلي رفع به إشكال عدم الوصف، وأثبت إمكان الوصف.

النتيجة / إن الله تبارك وتعالى يتصف حقيقة بالصفات التي ترد في القرآن الكريم كالمجيء والإتيان وغيرها.

وفي قوله تعالى{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [هود: ١٧].

يردُ العلامة الطباطبائي على من ذهب الى ان معنى (البينة) هو القرآن معتمداً على حجج تداولية يمكن تمثيلها كما يأتي:( )

الادعاء: ردّ من قال: إن معنى البينة هو القرآن

الدعم:

أ. إعطاء معنى البينة إذ يقول: البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة.

ب. استعمالات البينة في القرآن:

(البينة) = الحجة.

وهذا ادعاء ايضاً دعمه بالآية القرآنية قوله تعالى{ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال:٤٢].

١- (البينة) = الآية. هذا ادعاء ايضاً دعمه بآية قرآنية قوله تعالى(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [الأعراف:٧٣].

٢- البينة = البصيرة الخاصة الإلهية التي أُوتيها الأنبياء، وهذا ادعاء يدعمه بقوله تعالى{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ }[هود: ٢٨].

٣- البينة = مطلق البصيرة الإلهية، وهذا ادعاء يدعمه قوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ }[محمد: ١٤] .

فبعد أن ذكر المعاني للبينة ودعمها، سيكون المعنى المطلوب اثباته ان المراد بالبينة: البصيرة الخاصة هو الادعاء الجديد بعد أن ذكر تلك المعاني.

الادعاء / أن المراد بالبنية هنا أنها البصيرة الخاصة بالنبي الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم).

الدعم /

السياق اللغوي: ففي الآية الكريمة قوله تعالى " فلا تك في مريةٍ مما يعبد هؤلاء" (هود: ١٠٩) لو كانت البينة بمعنى القرآن، لا يحسن التفريع في الظاهر بقوله تعالى " فلاتك في مريةٍ مما " والتقدير فمن كان على قران من ربه. . فلا تك في مرية مما) " فاللغة هي الفيصل لرفض هذا التأويل.

وسيكون ترتيب الحجج هكذا:

المعطى / مجموع الادعاءات.

الضامن / لا يمكن القبول بأي معنى دون الاعتماد على السياقات.

النتيجة / ان معنى البينة هو البصيرة الخاصة بالنبي، وبهذا يتم الرد على من قال خلاف ذلك.

ثانياً: الاليات الحجاجية وفق نظرية ديكرو:

على الرغم من الإشكالات( ) التي واجهت نظرية ديكروالا انها مازالت في الدراسات التداولية تعد نظرية يمكن الإفادة منها في تحليل الخطاب تداولياً.

تعتمد نظرية ديكرو اللغة كوسيلة للوصول الى الحجاج لا يمكن الاتفاق معه في كل نظريته بل من الممكن الإفادة من آلياته الحجاجية التداولية في تحليل الخطاب ويمكن الوقوف على أركان لنظريته تمثل المحور المهم وهذه الأركان هي: الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية مع الإشارة إلى أن أهم ركن في النظرية اليوم ما يسمى بـ (الموضع) وهو مقارب لما ذكره تولمن في نظريته باسم (الضامن او الضمان)

أولاً: الروابط الحجاجية:

الربط في اللغة هو الشدَ ( ) ويرى ابن فارس أن مادة (ربط) أصل واحد تدل على الشدَ والثبات( ) وإضافة الثبات عند ابن فارس عطف تفسير، لأن قوله (الشدّ) يستبع ثباتاً.

الشد يكون بين شيئين لتحقيق الثبات والتآصر وقد اتكأ الحجاج التداولي على الروابط اللغوية التي كانت مهمتها داخل التراكيب والجمل، وكان لا يتجاوز الربط بين الجمل والقضايا، اما بعدها الحجاجي والتداولي فقد برز مع ديكرو في اطار ما يسميه التداولية المدمجة ( )

تقوم نظرية ديكرو على جعل بنية اللغة ميداناً للكشف عن الآثار التلفظية التداولية() ولا تعنى نظرية ديكرو ((بالترابط بين قضايا النص، ولا تهتم بالعوامل غير اللغوية التي تضبط خصائص الأقوال، ومن ثم تضبط خصائص تسلسلها وتنسيقها))( ).

من هنا جاء الاهتمام بالروابط والعوامل الحجاجية من قبل ديكرو؛ لأنها تمثل البنية الحجاجية اللغوية، والتفريق بين الرابط الحجاجي والعامل الحجاجي لم يكن متفقاً عليه، فهناك من فرق بينهما، وهناك من عدها نوعاً واحداً، إلا أن التداوليين يتفقون في كونهما ((عناصر لغوية تنظمها غاية واحدة، وهي تحقيق الخطاب للأقناع في عملية التواصل))( )، وهذه الغاية التي تحكم العوامل والروابط جعلت لها وظيفة خطابية حجاجيه تتفرع هذه الوظيفة إلى:

ربط الوحدات اللسانية الكبرى أو الوحدات الخطابية.

الكشف عن بنية الوحدات اللسانية وتناسقها (الكلمة، النص).

الكشف عن نتائج الملفوظ التي بدونها لا يمكن الظفر بأي معنى او غاية من الملفوظ( ).

والربط في مجال المنطق هو ((الأداة الأساسية التي تمكن من تأليف عبارة مركبة من عبارات أبسط، بحيث تكون صادقة او كاذبة))( )، وهو ((كل لفظ يمكن من ربط قضيتين أو جملتين أو أكثر لتكوين قضايا وجمل مركبة))( )، أو هو ((طريقة تصل ملفوظين أو اكثر تم سوقهما ضمن استراتيجية حجاجية بعينها))( )

ومثال ذلك:

هذا المؤتمر ناجح، عموماً فالمادة البحثية نافعة.

وقد ميز أبو بكر العزاوي بين أنماط عده للروابط منها:( )

أ- الروابط المدرجة للحجج (حتى، بل، لكن، مع، ذلك، لأن. . .).

ب- الروابط المدرجة للنتائج (اذن، لهذا، بالتالي. . . .).

ج- الروابط التي تدرج حججاً قوية (حتى، بل، لكن، لاسيما. . . .).

د- روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك. . . . .).

هـ - التساوق الحجاجي (حتى، لا سيما. . .).

وسأتعرض للروابط الحجاجية المشهورة والمتداول استعمالها في تفسير الميزان ومن أمثلة هذه الروابط:

١- الرابط الحجاجي (لكن)

لكن من حروف الاستدراك ((ومعنى الاستدراك أن تنسب حكماً لأسميها، يخالف المحكوم عليه قبلها، كأنك لما اخبرت عن الأول بخبر، خفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك، فتداركت بخبره، إن سلباً، و إن إيجاباً. . . وقال بعضهم: (لكن) للاستدراك والتوكيد، ولا تقع (لكن) إلا بين متناقضين بوجه ما))( ).

تقع (لكن) بين حجتين تضعف، أو تلغي الحجة الأولى وتثبت الحجة

الثانية، وقد صنفها أبو بكر العزاوي في ضمن أصناف متعددة للحجج فنجدها ضمن الروابط المدرجة للحجج والروابط التي تدرج حججاً قوية وروابط التعارض الحجاجي( )وهذا التصنيف المتعدد لـ (لكن) في ضمن الأنواع المتعددة للحجج على الرغم من المأخذ علية إذ فيه ارتباك ولم يكن تصنيفها مانعاً جامعاً وفق أسس منطقية، إلا أنه يبين سعة دائرة (لكن) كرابط حجاجي.

وقد وردت استعمالات (لكن) في خطاب الميزان بصور متعددة.

قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة: ٦] بعد أن ذكرت آيات الوضوء والتيمم تأتي هذه الآية؛ لتقدم حجتين تربطهما أداة الاستدراك (لكن)، الحجة الأولى قوله تعالى " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج " وهي نفي الحرج عن التشريع ودخول (من) لتأكيد النفي( ) والحجة الثانية " يريد ليطهركم ". ولكن لم تأت كرابط تعارض حجاجي إنما رابط لإدراج حجة قوية، وهذه القوة لم تكن (لكن) مسؤولة عنها وحدها، بل قوة الحجة جاءت من وجود اللام في (ليطهركم) فالحجة الأولى ستكون لا حرج في التشريعات المفروضة على المكلف والحجة الثانية الغاية من التشريعات هو تطهير المكلف تطهيراً معنوياً( ).

ومن النصوص الحجاجية الأخرى، قوله تعالى{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }[الأنعام: ٣٣]، (لكن) توسطت حجتين الأولى " قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون " والثانية " ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون "،

الحجة الأولى ان الرسول يحزن مما يقوله المشركون( ) و الحجة الثانية أدتها (لكن) كحجة معارضة و (لكن) رابط حجاجي معارض فـ (لكن) رابط حجاجي تعارضي هنا جيء بها؛ لتعارض الحجة الأولى من قبل الحجة الثانية، فالمعنى سيكون كما قال العلامة الطباطبائي: ((وكأن المعنى قد نعلم أن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم اليك لأنك لا تدعو إلا إلينا وليس لك فيه إلا الرسالة بل هم يظلمون بذلك آياتنا ويجحدونها))( ).

وفي مدونة الميزان يقول العلامة الطباطبائي: ((والسمع والعلم وإن كانا معدودين من صفاته تعالى الذاتية. . . لكن من العلم، وكذا السمع والبصر ما هو صفة فعلية خارجة عن الذات)( )

والرابط (لكن) رابط تعارضي هنا ايضاً يذكر العلامة حجتين الأولى معارضة من قبل الثانية لكن هذا التعارض تعارض فلسفي ليس مطلق، ولا تنفي الحجة الثانية الحجة الأولى، بل تبين نوعاً جديداً، وحكماً جديداً من الأحكام العقائدية الفلسفية.

٢- الرابط الحجاجي بـ (بل).

بل حرف إضراب يعدل بها من الحكم الاول إلى الحكم الثاني، وهي((من الحروف الهوامل، معناها الإضراب عن الاول والايجاب للثاني))( ) فوجود (بل) داخل تركيب الجملة كرابط تنقل المتلقي من الحكم الأول للحكم الثاني، وقد دخلت في ضمن تصنيفات العزاوي في ضمن الروابط المدرجة للحجج، وفي ضمن الروابط التي تدرج حججاً قوية، وفي ضمن روابط التعارض الحجاجي( ) لسعتها، فهي تشابه الرابط (لكن) حتى في سعتها ((وهذا يعني ان (بل) تعمل تعارضاً حجاجياً بين ما يتقدمها وما يتبعها وبهذا توجه القول بمجمله نحو النتيجة))( ) التي ترد في الحجة الثانية، وهذا الكلام ينطبق على (بل) التي تأتي رابط تعارض حجاجي.

في قوله تعالى { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ }[البروج:١٩]، (بل) هنا جاءت كرابط تعارضي تنفي الحكم

الاول المتقدم وتثبت الحكم الثاني فـ (بـل) جـاءت بـين حجتـين الاولـى متقدمـة تحث على الموعظـة والحجـة الثانية تثبت ان الذين كفروا محافظين على تكذيبهم، وهذا التعارض لا ينفي التكليف تجاه الكفار، فيقول العلامـة الطباطبـائي((وفي الآيـة إضـراب عما تقدم من الموعظـة والحجـة من حيث الأثـر، والمعنـى لا ينبغـي ان يرجـى منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فان الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظة أو حجة))( ) وقوله من حيث الأثر أي من حيث النتائج لا من حيث طلب هدايتهم والسعي إلى إيمانهم.

وفـي قولـه تعـالى { أَفْتَرَى عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ } [سبأ:٨] عملت بل كعارض حجاجي وكرد لترد الكفار فقد تردد قولهم في قضية المعاد، وفي قوله تعالى: {وَقَالَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا هَـلْ نَـدُلُّكُمْ عَلَـى رَجُـلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْـقٍ جَدِيـدٍ} [سـبأ:٧] ، وفـي قولـه تعـالى " أفتـرى علـى الله كـذباً أم بـه جنـة " فالتعارض الحجاجي لـ (بل) أدى مهمـة الـرد علـى الكفـار فيقـول العلامـــة الطباطبـــائي ((ردّ لقـــولهم واضـراب عـن الترديـد الـذي أتـوا بـه مسـتفهمين، ومحصـله ان ذلـك لـيس افتـراء علـى الله ولا جنـون فيـه بـل هـؤلاء الكفـار مسـتقرون فـي عـذاب سـيظهر لهـم)) ، فـ (بـل) هنـا استطاعت ان تكوّن حجاجاً تعارضياً لحجتين، أو إدعائين جاء بها الكفار.

وفـي قولـه تعـالى{ فَلَمَّـا رَأَوْهُ عَارِضًـا مُسْـتَقْبِلَ أَوْدِيَـتِهِمْ قَـالُوا هَـذَا عَـارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الأحقاف: ٢٤] " تعمل (بل) كرابط حجاجي تعارضي، فالحجـة الأولـى جـاء بهـا قـوم هـود عندما رأوا العذاب " قالوا هذا عارض ممطرنـا " ((اي استبشـروا ظنـاً انـه سحاب عـارض ممطـر))( ) والحجـة الثانيـة التـي أكدتها (بل) قولـه تعالى: " بـل هـو مـا استعجلتم بـه ريـح فيهـا عـذاب أليـم " وجـاءت علـى طريقـة التهكم( ).

٣- الرابط الحجاجي (لأن):

من الروابط الحجاجية المهمة، إذ ((يعد هذا الرابط من اهم الفاظ التعليل والتفسير، وهو الى جانب هذا يستعمل لتبرير الفعل كما يستعمل لتبرير عدمه))( )

وقد ورد هذا الرابط في مدونة الميزان كثيراً أفاد منه العلامة الطباطبائي وحلل وعلل به الكثير من الآيات، والدلالات ففي قوله تعالى { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم:٤١] يستعمل العلامة الرابط للوقوف على سبب اذاقة الكافرين وبال بعض أعمالهم فيقول: ((وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه وبرحمته يعفو عن بعض))( ) ويدعم ذلك بقوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى:٣٠]، فالرابط الحجاجي (لأن) ربط بين حجتين الأولى من القرآن الكريم وهي قوله تعالى " ليذيقهم بعض الذي عملوا " والحجة الثانية من العلامة الطباطبائي، إذ استطاع أن يعلل بها الحجة الاولى.

وفي قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [يس:٥١] يثبت العلامة أن المقام في هذه الآية مقام التقريع لمنكرين الربوبية، ويستعمل الرابط الحجاجي (لأن) لأقناع المتلقي من خلال تعليل ما ذهب اليه من مقام التقريع فيقول: ((والنسل الاسراع في المشي والتعبير عنه بقوله (الى ربهم) تقريع لهم؛ لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته))( ).

وفي قوله تعالى{ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات: ١٧١-١٧٢] يقول العلامة الطباطبائي: معلقاً على نصر الرسل (عليهم السلام) ((فالرسل (عليهم السلام) منصورون في الحجة؛ لأنهم على الحق والحق غير مغلوب) ( )، فالرابط الحجاجي (لأن) علل سبب النصر للرسل (عليهم السلام) بكونهم على الحق.

ثانياً: العوامل الحجاجية:

المحور الثاني الذي ترتكز عليه نظرية ديكرو انها تشتغل في الجملة الواحدة، ولا تربط بين الجمل، فالعوامل ((هي الآله التي نصل بها إلى النتيجة من الملفوظ وذلك عند تقويتها للحدث التوجيهي للمصرح به))( )، ولها وظيفة تختص بدفع المتلقي إلى تحديد النتيجة باكتشاف الخطة الخطابية التي يقوم عليها الملفوظ، وتمتلك وظيفة تقوية طاقة الملفوظ الحجاجية( ).

أمثله لتوضيح العامل الحجاجي:

١- الساعة تشير إلى الثامنة.

٢- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة.

المثال الأول / يوسع أفق الدلالة فأما هناك مطالبة بالإسراع أو الابطاء.

المثال الثاني / إنه يغلق أفق الاحتمال، وتكون المطالبة بعدم الاسراع( ).

هذا المثال يعتمد عليه التداوليون في فهم العامل الحجاجي، ويمكن مناقشة هذا المثال: "لا تشير الساعة إلا الى الثامنة"

كيف أدّى النفي و القصر إلى تحديد عدم الاسراع؟ فكل ما أعطاه الاستثناء هو دقة الوقت، ولتحديد الإسراع من عدم الإسراع نحتاج إلى قرائن سياقية لغوية، أو حالية لأجل الوصول إلى معنى عدم الاسراع، فالعامل الحجاجي لا يمكنه أن يكون كما يدعي التداوليون، فالأمثلة التالية ستبين أن دلالة النفي والقصر لا تشير إلى ما ذهب إليه التداوليون ونماذج الأمثلة هي:

١. لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة ونحن نسير بسرعة دون توقف ربما توقف الزمن.

٢. لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة هذه كلمة السر التي نستعملها بيننا.

٣. لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة منذ شهر وهي تلازم هذا التوقيت ربما بحاجة إلى إصلاح.

فهذه الامثلة تكفي لنقض ادعاءات التداوليين، فالسياق هو المحور في تحديد دلالة الجمل والعبارات.

وأبرز العوامل الحجاجية التي سأتعرض لها في تفسير الميزان هي:

١- العامل الحجاجي (إنما):

أداة حصر تزيد توكيد المعنى قوة ووضوحاً( ). تعدّ من العوامل الحجاجية تعمل على ((اثبات لما يذكر بعدها ونفي ما سواه))( ).

ويؤتى بـ انما في الكلام ((لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته كقولنا: انما هو اخوك، فأننا لا نقول ذلك لمن يجهل، وإنما لمن يعلمه، ويقر به لكن تستعمل (انما) للتنبيه للذي يجب عليه من حق الاخوة))().

التسليم المطلق لقول الجرجاني فيه نوع من المغامرة، فمراجعة سريعة للآيات القرآنية تثبت أن استعمال (إنما) ليس دائماً لأمر معلوم كقوله تعالى: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة:١٧٣] ، وقوله تعالى { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٧٥]، وقوله تعالى{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:١٧]، وقوله تعالى { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } [المائدة:٥٥]، وغيرها كثير من المفاهيم القرآنية لم تكن معهودة ولا معروفه.

وهذا الامر لا يضر بقيمة (انما) الحجاجية القائمة على الحصر، والتنبيه، والتقيد، إذ ((تؤطر (إنما) المقصور عليه وجوباً))( ).

وقد وردت إنما في مدونة الميزان ففي قوله تعالى{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [آل عمران:٦٤] علق العلامة الطباطبائي على العمل بقوله: ((وقد عرفت أن العمل يتعلق بمعنى الكلمة لا نفسها كما أن

الاجتماع أيضاً على المعنى لا يخلو من عناية مجازية))( )، وعلق أيضاً على قوله تعالى " فأن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" بقوله ((لكن الدعوة في الآية إنما هي إلى التوحيد العملي وهو ترك عبادة غير الله سبحانه دون اعتقاد الوحدة))( ).

فالعامل الحجاجي (إنما) شبّه وقيّد حقيقة العمل وحقيقة التوحيد المرجو في الآيتين الكريمتين، واستطاع أن يقوي قوة الحجاج لتأدية معنى الاقناع للمتلقي.

وفي قوله تعالى { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال:٣٢] يرى العلامة الطباطبائي سبب إفراد المطر عن العذاب الاليم لخاصية الرضخ بالحجارة احتاج لبيانها العامل الحجاجي (إنما)، إذ يقول ((وانما افرد إمطار الحجارة من بين افراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلة والاهانة))( ).

وفي قوله { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس:٣٧] على الرغم من وجود أكثر من كتاب، ككتاب نوح وابراهيم (عليهم السلام) فضلاً عن التوراة والانجيل فيقول: ((أي تصديقاً لمن هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والإنجيل. . . وإنما وصفهما بما بين يدية مع تقدمهما؛ لأن هناك كتبا غير الكتابين ككتاب نوح وابراهيم (عليهما السلام)، فإذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الأقرب منها زماناً إليه وهو التوراة والإنجيل موصوفاً بأنه بين يديه))( ).

فحصرت (إنما) الوصف بالكتابين واعطت المتلقي زخماً حجاجياً يتقبل معه الحكم الذي اعطاه العلامة مع الالتفات الى انها فتحت باب التعليل في ذيل كلام العلامة لسبب الحصر.

٢- العامل (لم يزل):

إن إدخال العامل الحجاجي في بنية الخطاب يؤدي بالمتلقي إلى ((انتخاب مسار ضمن المسارات الممكنة لكنه ابداً لا يكون مؤولاً عن النقلة الحجاجية ذاتها، فهذه العملية من اختصاص الوضع))( )، ولابد أن لا نغفل عن السياق لعجز الوضع منفرداً إذ الوضع قطعاً محتاج للسياق لأدراكه ومن العوامل الحجاجية (لم يزل) جاء بها العلامة الطباطبائي في مدونة الميزان من ذلك قوله ((وانت اذ تأملت هذه التحيات الدائرة بين الأمم على اختلافهم وجدتها حاكمة مشيرة إلى نوع من الخضوع والهوان. . . وبالجملة تكشف عن رسم الاستعباد الذي لم يزل رائجاً بين الامم في إعصار الهمجية فما دونها))( )، فالعامل الحجاجي (لم يزل) استطاع أن يرجح مساراً مهماً لدى المتلقي عن صورة حياة الخضوع، والهوان للأمم في عصور الهمجية، ويجعل المتلقي لا يشك بما طرحة العلامة الطباطبائي، ولا يؤدي هذا المعنى لو استعمل العلامة عاملا غيره كـ (ربما)، أو (غالباً ما) لم تكن بقوة (لم يزل).

وللعلامة الطباطبائي رأي في مدونته يبين كيفية انتقال دلالات الألفاظ على المعاني المتعددة فيقول: ((مثال ذلك أن السراج ظهر أول يوم وهو آله الاستضاءة في ظلمة الليل ومصداقه يومئذ إناء يجعل فيه فتيله على مادة دسمة ويشتعل رأسها. . . ثم انتقل الاسم إلى مثل الشموع والمصابيح النفطية، ولم يزل ينتقل من مصداق إلى مصداق حتى استقر اليوم في السراج الكهربائي الذي ليس معه من مادة المصداق الأولي ولا هيئة شيء أصلاً غير أنه آلة الاستضاءة في الظلمة بذلك يسمى سراجاً حقيقة))( ).

فالعامل (لم يزل) ساهم في دفع المتلقي بالاقتناع بمطلب العلامة الطباطبائي ويعطي (لم يزل) بعداً مستمراً، فكل ما تغير المصباح كمصداق يبقى مفهومه ثابتاً.

فالعامل الحجاجي لا يربط بين جملتين إنما يقوم بالحصر والتقيد للحجج.

ثالثا : السلالم الحجاجية

من أركان نظرية الحجاج السلالم الحجاجية إذ يعمد المتكلم إلى ترتيب حججه وتقديمها مع معطياتها ترتيبا سلميا منظما لأجل الوصول لنتائج ايجابية في الحجاج. فالحجاج اللغوي لابد أن يكون معتمدا على المنظومة اللغوية وترتيبها ،ويتم ذلك بواسطة أدوات ، أو أقوال لغوية تمثل فعل الحجاج، وتقوم به من خلال اصطفافها كحجج، وترتيبها وفقا لقوتها الحجاجية، إذ ترتب هذه الحجج بصورة سلم اعلاه يكمل اسفله وغالبا ما يثبت اعلاه ويكون اقوى مرحلة حجاجية نصل منها إلى النتيجة في سياق مترابط يعمد إليه المحاجج، مرتبا حجاجه بالاعتماد على مبدأ الضعف والقوة في الحجة وصولا إلى النتيجة، وهذا الترتيب بالحجج يطلق عليه السلم الحجاجي().

هذا بالنسبة للمحاجج الذي يمتلك كفاءة المحاججة أما غير المتمكن فلا شك أن حججه ستكون مناسبة لكفاءته وامكاناته الحجاجية ولو لاحظنا أن التداولية تدرس اللغة في الاستعمال فوضع هذه الاوصاف للسلم الحجاجي سيكون معياريا للحجج والمحاججة .

فيمكن أن يكون الحجاج دون سلما حجاجيا متكاملا .

يتميز السلم الحجاجي بميزتين هما:

١.يكون ترتيب الحجج فيه حسب قوة الحجة ، فكل قول يأتي ضمن السلم، يؤدي إلى قول يعلوه، ويكون دليلا أقوى منه بالنسبة للنتيجة.

٢.إذا كانت الحجة الأولى المرمز لهاب(ب) والتي هي أضعف الحجج في السلم تؤدي إلى النتيجة، فهذا يعني أن الحجة التي فوقها المرمز لها بـ(ج)أو(د)، والتي تعلوها درجة تؤدي إلى النتيجة نفسها، والعكس غير صحيح.

ويرى ديكرو أن السلم الحجاجي يقوم على عدد من الحجج المتدرجة

والمتلازمة فيما بينهما، وأن هناك علاقة بين تلك الحجج وبين النتيجة التي يستشف منها ،إذ لاتعد الاقوال في السلم الحجاجي حججا الا اذا ولدت نتيجة ، وأن النتيجة قد يصرح بها أو قد تضمر وتستنتج من تلك الحجج.( )

وكلام ديكرو كلام منطقي اذ لا يمكن أن نتصور المحاجج لأثبات موضوع ما يأتي بحجج متنافرة بل لابد من وجود رابط وتلازم وعلاقة من نوع ما بين تلك الحجج فضلا عن أن يأتي بحجج لاتؤدي للنتيجة المرجوة.

وللسلم الحجاجي قوانين متعددة منها:

- قانون النفي : اذا كان قول ما (أ) مستعمل لينتج نتيجة معينة(ن) ،فان

(ـ أ) سيكون حجة تخدم النتيجة المضادة . فستكون لدينا نتيجتين متضادتيين

(أ) انتجت (ن) :علي مجتهد لقد نجح في الامتحان .

(ـ أ) انتجت (ـ ن) :علي ليس مجتهدا انه لم ينجح في الامتحان.

- قانون الخفض: أن القول إذا صدق في مراتب معينه من السلم ،فإن نقيضه يصدق في المراتب التي يقع تحتها.

وقد التفت العلامة الطباطبائي للحج القرآنية في الآيات الكريمة ووظفها في الكشف عن الدلالات القرآنية فضلا عن استعماله الحجج والسلم الحجاجية في ثنايا الميزان من ذلك ما جاء في قوله تعالى: { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الرعد:٣٣]

يذكر العلامة الطباطبائي الحجج اجمالا فيقول:((فأمر نبيه بأن يحاججهم بنوع من الحجاج عجيب في بابه))( )، وعند ترتيب الحجج في السلم الحجاجي ستكون بهذا الشكل:

١. الحجة الأولى:(قل سموهم) ((أي صفوهم فإن صفات الاشياء هي التي تتعين شؤنها وآثارها فلو

كانت هذه الاصنام شركاء لله شفعاء عنده وجب أن يكون لها من الصفات ما يسوي لها الطريق لهذا الشأن))( ).

٢. الحجة الثانية :(أم تنبئونه بما لايعلم مافي الأرض) ((وأم منقطعة أي بل أتنبئونه بكذا والمعنى أن اتخاذكم الأصنام شركاء له إنباء له في الحقيقة بما لا يعلم فلو كان له شريك في الأرض لعلم به لأن الشريك في التدبير يمتنع أن يخفى تأثيره في التدبير على شريكه والله سبحانه يدبر الامر كله ولا يرى لغيره أثرا في ذلك لا موافقا ولا مخالفا))( )

٣. الحجة الثالثة:(أم بظاهر من القول) ويستوعب هذا القول أن يكون المعنى دعما للحجة الثانية ((أي بل أتنبئونه بأن له شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة))فضلا عن كونه طلبا لدليل ظاهر ككتاب منزل وغيرها((وعن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر كتاب نازل من الله تسمى فيه الاصنام الهة حقه))()

النتيجة التي تبتغيها هذه الحجج هي ((حاصل الآية نفي الدليل العقلي والسمعي معا على الوهيتها وكونها شركاء لله سبحانه))( )

هذه ثلاث حجج ساقها القرآن الكريم لأثبات نتيجة واحدة تتلخص بنفي الشريك لله تبارك وتعالى تتفاوت الحجج في قوتها فبدأ بحجة الوصف لصفات ما يعبدون وهو طلب بسيط لمن يعبد ربا إذ لابد من أن يعرف صفاته ثم انتقل الى للحجة الأخرى وهي حجة النفي فإن كان لله شركاء فلابد أن يكون له علم بهم والله تبارك وتعالى لا يعلم بوجود شركاء له وهذه الحجة أقوى من الحجة السابقة لأنها تستبطن البعد العقلي إذ لا يمكن تصور شريك لله تبارك وتعالى وهو القائم بذاته الغني ثم انتقل للحجة الثالثة التي تطلب دليلا سمعيا مروياً ما في كتاب الله وهذا غير موجود ، وعليه السلم الحجاجي بدأ بأضعف الحجج إلى أقواها .

ويلتفت العلامة الطباطبائي لوجود ترابط لهذه الحجج أذ يقول: ((ووجه

الارتباط بين هذه الحجج الثلاث أنهم في عبادتهم الأصنام وجعلهم لله شركاء مترددون بين محاذير ثلاثة إما أن يقولوا بشركتها من غير حجة إذ ليس لها من الأوصاف ما يعلم به أنها شركاء لله، وإما أن يدعوا أن لها أوصاف كذلك هم يعلمونها ولا يعلم بها الله سبحانه، وإما أن يكونوا متظاهرين بالقول بشركتها من غير حقيقة وهم يغرون الله بذلك تعالى عن ذلك علوا كبيرا))( ).

ومن السلالم الحجاجية ما ورد في قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى } [النجم:١٩-٢٤]

الحجج في هذه الآيات متتابعة لأثبات نتيجة واحدة وهي نفي الشريك لله تبارك وتعالى بأسلوب قرآني تداولي بدأ بالاستهزاء منهم لقسمتهم استهزاء قريب على أنفسهم وواقعهم الاجتماعي والحجج التي مثلت السلم هي:

١. { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } فهنا طلب لوصف هذه الاصنام بصفاتها ((فأخبروني عن اللات والعزى ومناة ..التي تدعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم))( ) ، وهذه الحجة أسهل الحجج لأنها تتعلق بوصف من تعتقده ربا .

٢. { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى } هذه الحجة الثانية جاءت على طريقة عرب الجاهلية الفكرية الذين يفتخرون بالولد دون البنت هذه الحجة صاعقة لهم لأنها على طريقتهم جاءت بطريقة النقض لما يدعون فأنتم تفضلون الولد على الاناث لأنفسكم لم تفضلونه لله أهو أهون عليكم من أنفسكم يأتي( ) الرد القرآني عليه بقوله تعالى { تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى }وهذه الحجة أقوى من الحجة السابقة اجتماعيا لهم لكونها قريبة لنفوسهم .

٣. الحجة الثالثة يتجه الله تبارك وتعالى لبيان أصل الاشكال لهم ويقدم حجة قوية تجاههم وهي قوله تعالى: { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}

إذ تفضح هذه الحجة حقيقة ما يعتمدون عليه في اتخاذ الشركاء لله وهو الظن والتمني ويدعم القرآن هذه الحجة بقوله تعالى: { أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى }

فالظن وهوى النفس في دائرة الظن للإنسان والدليل الوجداني يلزم الانسان ان ليس التمني هو ما يجعل الانسان يتحصل على ما يريد ((ليس يملك الانسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة ...بمجرد التمني))( )

فالحجة الثالثة أقوى الحجج لأنها كشفت المستور داخل نفوسهم فضلا عن اعتمادها العرف الوجداني في التمني وردها لأقوالهم.

فمعالم السلم الحجاجي لم تكن واضحة عند العلامة الطباطبائي لكنه كان ملتفتا للحجج والادلة .

خاتمة البحث ونتائجه

- اثبت البحث أن مدونة الميزان تمتلك ابعادا حجاجية تعتمد على المنطق واللغة كنظرية تولمن .
- الحجاج اللغوي وفق نظرية ديكو كان حاضرا في مدونة الميزان بآليات كالروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية فضلا عن اعتماد السياق الحالي محورا مهما في الحجاج.
- السلام الحجاجية وتتابعها في مدونة الميزان يثبت قوة الحجج والكفاءة التي يمتلكها صاحب التفسير.